

﴿ باب العقائد من الأمالي الدينية ﴾

(الدرس ٣٥ — عدد الأنبياء ومواطنهم وتعددتهم)

(المسألة ٩٦) عدد الأنبياء والمرسلين روي في عددهم أحاديث لا يحتاج بشيء منها ومنها الضعيف والموضوع وأمثلها ما رواه أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غيراً » وفي رواية للحاكم والبيهقي عن أبي ذر « والمرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر وآدم نبي مكلم » . ومن حديث أنس عند الحاكم وابن سعد أن الأنبياء ثمانية آلاف ويفهم منه أن المراد بهم المرسلون . وفي حديث جابر عند ابن سعد وأبي سميد عن الحاكم « إني خاتم ألف نبي أو أكثر » ولمدم الثقة بهذه الروايات قال العلماء بالوقف في مسألة عدد الأنبياء لأن القائل بعدد يكون نافياً لما زاد عنه فهو كالكذب بالزائد وما يدريه لعل هناك زيادة . هكذا قالوا وأقوى منه أنه قول علي الله بغير علم فهو من الكذب عليه جل ثناؤه ومن اتباع الظن في الأمور الاعتقادية « وان الظن لا يغني عن الحق شيئاً » . وقد قال تعالى لنبيه « مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » فحسبنا من العدد ما قصته الله تعالى في القرآن أن الرسل الذين ذكروا في القرآن يجب الإيمان بهم تفصيلاً . قال تعالى « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ

ويوسف وموسى وهرون وكذلك نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى
 وَإِيَّاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا
 عَلَى الْعَالَمِينَ» فهذا هو تفضيل النبوة والرسالة يفضلون به سائر الناس. وقد
 وردت هذه الأسماء متصلة على هذا الوجه. وقال تعالى: «واذكر في
 الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً» وقال جل جلاله في ذكر قصص
 المرسلين «وإلى عادِ أخاهم هوداً» وقال «وإلى ثمودِ أخاهم صالحاً» وقال
 «وإلى مدينِ أخاهم شعيباً» أي وأرسلنا إلى عادِ أخاهم هوداً ومثله ما بعده
 وقال تعالى «واذكرُ إسماعيلَ واليسعَ وذا الكفلِ وكل من الأخيار»
 فيذكر ذا الكفل بين الأنبياء. ولم يبق إلا ذكر الفاتح وهو آدم والخاتم
 وهو محمد عليهم الصلاة والسلام وذكرها في القرآن مستفيض

(م ٩٧) معاهد الأنبياء ومواطنهم: إن المعروف من تاريخ هؤلاء
 الأنبياء الكرام يدل على أنهم كانوا كلهم أو جلهم من بلاد العرب وما
 يتصل بها من الشام وفلسطين والعراق كأن هذه القطعة الصغيرة من
 الأرض التي يكون منها القاء وس الهندى والبحر الأحمر والبحر المتوسط
 شبه جزيرة هي منبت الأنبياء والمرسلين من بعد آدم أي من عهد نوح
 إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام. وكان الله تعالى اختص أهلها بالهداية
 دون سائر خلقه وإن القول بحصر النبوة والرسالة في هذه البقعة لمن
 أقوى شبه الملاحدة على الدين وهو يناهى ما تقدم في بيان وجه الحاجة
 إلى إرسال الرسل فيمكن أن يبطلوا ذلك بهذا إن صح وقد حملهم مارأوا
 في كتب اليهود والنصارى من حصر الأنبياء في بلاد فلسطين والشام وما

جاورها على البحث في أخلاق أهل هذه البلاد وطبائعهم وماداتهم فزعموا
أن عند خواصهم استعداداً خاصاً للقيام بالدعوات الدينية والمذاهب والرياسة
الروحانية وأن عند عوامهم استعداداً لإجابة كل داعٍ واتباع كل ناعق قالوا
ولأجل هذا حدثت الأديان والمذاهب والفرق في هذه البلاد دون غيرها
هذه الوسوس لا متفد لها إلى قلب من يفهم القرآن فقد قال جل
حكيمته « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا
نَذِيرٌ » فهذا نصٌ قاطع صريح في أن هذه الرحمة الإلهية والهداية السماوية
كانت منحة عامة لجميع الأمم في كل بقعة من بقاع الأرض. وإنه لقول
فصل ، تصافح فيه العقل مع النقل ، فإن قيل لِمَ لَمْ يذكر في بيان هذا
الإجمال بذكر الأنبياء والمرسلين نبيّاً أرسل في الهند أو الصين أو أوربا
أو أميركا ؟ تقول إن ذكر الأنبياء لم يأت بياناً لإجمال في هذه الآية وإنما
أتى لبيان سنن الله تعالى في الأمم مع أنبيائهم لأجل العبرة المنذرين .
وتثبيت المرسلين ، قال تعالى « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ »
وقال « وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ قَوْمًا ذَكَرْنَا مِنْ
العبرة والتثبيت إنما يكون بما هو معروف ولو بوجه ما ولذلك تكرر
ذكر الأنبياء الذين تعرف أقوامهم أو بلادهم بالتفصيل أكثر مما لا يعرف
إلا بالإجمال . ويكفي ذكر آية واحدة لبيان أن رحمة تعالى لمباده
بإرسال الرسل لهدايتهم عامة لأن جميع الخلق عمال الله تعالى وهو بهم
رؤوف رحيم . أرايت لو جاء هذا النبي العربي قومه بذكر نبي كان أرسل في
أميركا منذ مائة ألف سنة مثلاً وذكر لهم بعض شأنه معهم أكان يحصل له
من العبرة بعض ما حصل من أخبار أمة اليهود ، وخبر صالح في ثمود ؟

كلا إن ذكر الجمهور المطلق يحمل على التخيل والاختراع ، ويقول الناس في أمثالهم : إذا أردت أن تكذب فأبمد اليهود . ولذلك كان يأمرهم أحيانا بسؤال اليهود ، ونزل في قصة ثمود ، « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون »

وما يدرينا أن كونفشيوس كان نبياً مرسلًا إلى أهل الصين ، فإن آثار هدايته وحكمته لم تمح بالمرّة وكذلك يقال في بوذة فإن قيل يوجد في عقائد القوم ما يحكم الإسلام بأنه لا يمكن أن يكون من دين الله لاسيما ما في الديانة البوذية من الشرك بالله تعالى ؟ نقول أليس يوجد في عقائد من صرح القرآن الحكيم بأن كتبهم سماوية ، وديانتهم إلهية ، أمثال هذه العقائد التي يمدّها الإسلام وثنية ؟ فما يدرينا أن هذا دخل على القوم بالتأويل والتحريف كما دخل على من بعدهم إلى يومنا هذا « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » إذن إن طول الأمد على البعثة مظنة الفسوق عن أمر الله تعالى والمعبر بين أيدينا وعن أيماننا وشمائلنا ، فألهمنا اللهم رشدنا

فإن قيل : إذا جوزتم أن تكون الأمم التي سبقت لها آداب سامية ، ومدنية زاهية ، قد استمدت ذلك من الديانة السماوية ، كما قلت في الأمة الصينية ، فما هو الحكم في الأمم الهمجية التي لا يكاد يفصلها عن الحيوان الأعجم إلا بدو البشرة والضحك بالطبع كبعض زنوج أفريقيا وسكان بعض جزائر القاموس المحيط الأعظم ؟ إن قلتم إنه يمت فيهم أنبياء فأين آثار هدايتهم في الأمة ؟ وإن قلتم لما يرسل إليهم رسول فأين الموم في قوله

تعالى « وإن من أمة لا خلا فيها نذير » فالجواب أن الله جلت حكمته خلق هذا الإنسان وجعل كماله الوجودى بالارتقاء التدريجى فى عمله بالكون وعمل الكون به فكلاما استمدد لمرتبة من مراتب ذلك الكمال أعطاه إياها فهو يأخذ دائماً بقدر استمداده . وإطلاق القول فى العموم والخصوص يراعى فيه قيد ما عرف فى نظام الوجود أنه شرط له فإذا قلنا إن الأئمة تلد أو كل أئمة تلد فالمراد أنها تلد فى سن الولادة وبشرطها الوجودى فلا يتقضه كون الصغيرة لا تلد . فإذا فرضنا أن المسئول عنهم لم يظهر فيهم مرشد ينذر قومه بما يعطيه الإلهام الإلهى من المعرفة سوء ما هم فيه من إفساد ويدهم على الحق وطرق الإصلاح فلا شك أن ذلك لعدم اعتمادهم لفهم الحق ومعرفة الخير من الشر

على أن عدم ارتقاءهم فى المدنية لا يدل على أنه لم يظهر فيهم نذير ولا مرشد لأن الناس فى كل عصر لا يستفيدون فى هداية الأنبياء إلا بقدر اعتمادهم فكلم من نبي لم يؤمن به إلا النفر القليل كما ورد فى نوح عليه السلام . وكلم من نبي لم يؤمن به أحد كما قال تعالى بعد ذكر قصة نوح « ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » وأكثر الأنبياء قد درست آثارهم فى الشرق حتى أن صحف إبراهيم لم يحفظ منها شيء وهو أبو الأنبياء وخليل الرحمن والذي حفظت له الذكر الحسن جميع الأمم المؤمنة لأنها كانت قد ارتقت وصار فيها من يعرف قدر العظماء ويحفظه ولأن النبوة تسلسلت فى ذريته با اتصال فهل ينكر مع هذا أن لا يحفظ للأنبيا الذين يظهر ون فى الأمم الجاهلة المحمجة أثر ؟

(م ٩٩) ارتقاء الدين جرى الدين فى سنة الارتقاء وكان كماله فى الشرق

وذلك من عهد إبراهيم إلى عهد محمد خاتم النبيين فالأنبياء ليسوا أسواء في إصلاح الأمم في عقائدها وأعمالها وآدابها وروابطها الاجتماعية لأن الحاجة إلى الإصلاح تختلف باختلاف الأمم والأقوام فالبدو أقل من الحضرة ضللاً في الفكر وأقل علماً لأنهم أهل فطرة لم تتحكم فيها المذاهب الوضعية والآراء النظرية وأقل فساداً في الأخلاق والآداب لاجتماعهم وبعدمهم عن الترف وليس في البداوة من الشئون الاجتماعية مثل ما في الحضارة فتحتاج إلى ما تحتاج إليه من الشرائع المدنية والقضائية والسياسية .

كان الناس على بساطتهم وسلامتهم فطرتهم فمآذب فيهم الفساد لم يفسد إلا بالتدريج فكان يظهر فيهم الشرك في العبادة وهو التوجه إلى شيء من المخلوقات يكون صلة بينهم وبين الخالق الذي تشعر به فطرتهم، ولا يحيط به علمهم ولا تحده مخيلتهم، ويفشو فيهم بعض الشرور فيظهر الله فيهم واحداً منهم كبير العقل زكى النفس بلهم قلبه ويوحى إليه أن يندبهم العقوبة على ظلمهم وينهاهم عن الشرك والردية ويأمرهم بضدّها وبذلك تستقيم حال من أطاعه لأن هذا الذي طرأ عليهم هو الذي يضيء نور الفطرة بالتمادي فيكون الإنسان به شيطاناً مريداً . ألا ترى أن من الأنبياء من لم يذكر له القرآن إلا الدعوة إلى التوحيد فقط . ومنهم من ذكر له النهي عن معصية كانت فاشية فكان يدعو إلى التوحيد وينهى عنهما دائماً كما جاء في قصة لوط من النهي عن الفاحشة دائماً . وكتقوله تعالى في رسالة شعيب عليه السلام « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » ثم حكى عنه « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان » . فيفهم من تكرار ذلك أن المقصود الأعظم من رسالة شعيب عبادة الله تعالى وحده

وإيفاء الكيال والميزان لأن قومه كانوا مطلقين (كما كثرت الباعة في مصر لهذا العهد) إذا كتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوا أوزن نؤم يخسرؤن ولم تكن رسالة موسى بهذا الاختصار فقد كانت لها شريعة واسمة وفيها هجرة وحرب لأن معيشة الحضارة وحكم الاستبداد أترا في بني إسرائيل تأثيراً أفسد طباعهم من جهة وجعلهم مستعدين لحياة مدنية فاضلة من جهة أخرى فكانت هدايتهم أصعب .

(م ١٠٠) تعدد الرسل ومراتبهم : كان الناس أمة واحدة على فطرة الله التي فطر الناس عليها وذلك عند ما كانوا على البداوة التي هي أقرب إلى الحياة الفردية منها إلى الحياة الاجتماعية فقضت سنة الارتقاء أن يزيدوا اجتماعاً بالتدرج فكانت بعد البيوت والأمر العشائر والفصائل والقبائل والشعوب والأمم . وكانوا كلما ارتقوا درجة في الاجتماع تقوى فيهم الأطماع التي يقتضيها التنارع في الحظوظ ويكونون في حاجة إلى علم واسع بالمصالح والمنافع المشتركة . وكان يظهر فيهم عند الدخول في كل طور من هذه الأطوار هداية يرسدونهاهم إلى ترك الضار بأنفسهم منفردة ومجتمعة ويدلونهم على ما به تسلم أرواحهم من الفساد في الاعتقاد والأخلاق وفي ذلك سمادة الدنيا والآخرة . وبهذا وما قبله يعلم أن المقصود من بعثة الأنبياء والمرسلين واحد في الجملة وأنه يختلف في تفصيله باختلاف أحوال الأقسام وأن أولئك الهداة المصلحين لم يكن سبوا علم إصلاح الأمم اكتساباً بالتعليم وإنما كانوا ممتازين بفطرتهم السليمة عن قومهم امتيازاً كانوا به على علم بالإصلاح ضروري عندهم سمي خلفاء منشأه وسرعة حدوثه في النفس وحياءه (راجع الكلام على الوحي في المسألة ٦٢ من الدرر المشرين - ٢٥٢ : ٤)

وكان علمهم مؤثرا في النفس باعنائها على العمل به لانه وجدانى
إلهى لامن استنباط التصور والفكر الذى يصحبه الشك والتردد أى
انه كان يقع في قلب صاحبه ومعه علم آخر وجدانى وهو أنه من الله تعالى
سواء نزل على القلب في اليقظة أم في المنام .

و نتيجة هذا وذاك أن علم الرسل وأعمالهم متفاوتة بحسب أحوال
أممهم وبذلك فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات وسمى بعضهم
أولى العزم ومنه ومن اختلاف اللغات في الأقوام يعلم أنه الرسل قد
يتمددون في زمان واحد بين أقوام ولو متجاورين وقد يتعددون في
أمة واحدة للتماون كموسى وهرون في بنى اسرائيل . واذا كان فضل بعض
الرسل على بعض يكون بحسب حال الأمم التى بعثوا اليها وما يستلزمه
إصلاحها من العلم والعمل فهو سى جدير بأن يكون أفضل من صالح وشعيب
والمرسل الى الخلق كافة أفضل من المرسل الى أمة معدودة . وبهذه المناسبة
ومناسبة كون إرسال الرسل كان على حسب حاجة البشر الى الاصلاح
الروحى والاجتماعى تتكلم في الدرس الآتى عن ختم النبوة وخاتم النبيين
عليه أفضل الصلاة والتسليم

(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

بقلم الشيخ أمين أفندى عز الدين من اهل العلم والادب فى طرابلس الشام ونزيل مصر الآن
صدق الله العظيم وكذب هوس الناس : تقوم أمام المحراب تماثيل
بشرية يحرك حكم العادة أيدينا بالتكبير والسنننا بالتلاوة والتسبيح ويحنى
ظهورنا للركوع ويثنى عظامنا للسجود من غير أن يلم بنا شعور بهذه

الأوضاع أو يفعل في أنفسنا تأخير من تلك الأعمال فضلاً عن نظر في مقاصدها وتوجهه إلى غاياتها ونحسبها من الصلاة التي قال فيها رب محمد صلى الله عليه وسلم: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ونحن مشمرون للفواحش عن ذراع سبحان الله نحن ما نحن مصلون .

الصلاة ما جعلها الله أفملاً ميتةً وأوضاعاً جامدةً تقصد لذاتها ولكن جعلها مظاهر سكرية ومواقف خضوع تؤذن الناس أنها شمار مناجاة بين العبد وبين ربه كل يوم ليكون هذا الإنسان على نوع من ذكر الله تعالى في ممارك مماشه ومعامع حياته وفي الآخرة أعد الله له أجراً عظيماً .
تعالى الله أن يكاف قلوباً غافلاً ونفوساً جافاً باختلاجات عضوية فارغة الإناء ثم يمد لفاعها حسن الجزاء .

الصلاة أفعال مخصوصة ذات أركان معلومة جعلها دين الله الإسلامي مرقاةً لمراقبة المعبود أنزلت من السماء مائدة تحمل للأرواح غذاءها من العالم النوراني كيلا تضل في الغربة ويتغاب عليها سلطان الشهوة الذي يأتيه رزقه من مطاهي هذه الطبيعة كل يوم . خلق هذا الإنسان عالمين متباينين لكل منهما مطالب تناسب طبيعته وتلائم درجته في الوجود . أحدهما: مادي كثيف حكم الله عليه أن يتكفف هذه الطبيعة في وجوده وبقائه والثاني: أثري لطيف يستمد وجوده من النور القدسي ويستفيض بقاءه من النفحات الإلهية فالأول جسم والثاني روح .

تناول الجسد وجوده من هذه البسائط الأرضية فجرت عليه قوانين الطبيعة واعتورته أحكام المادة من قوة وضعف وزيادة ونقص وتحال وتركب وأصبح من أجل ذلك في حاجة شديدة لتمويض ما استلبه

منه نواويس التحليل مثلاً يمثل وجنساً بجنس وذلك غذاؤه وأما الروح فهو وإن كان آمناً على وجوده من غارة الفناء وانحلال الأجزاء إلا أنه هبط من السماء وله مع العالم المادى شؤون يريد كل من المتجاورين أن يكون هو المتغلب ليتمكن من امتلاك هذا الهيكل الإنسانى فيستطيعه فى أمياله ويتصرف فيه كيف يشاء ومن ثمة كان الروح مضطراً أن يستمد من عالمه العلوى ما يتوى به على التغلب أو يحفظه به مركز استقلاله وهذا هو غذاؤه، متى تمت الغلبة للروح رفرفت بهذا الإنسان إلى معاهدها الأولى فى مظاهر الملكوت ومصاف الملكية وأذنت له أن يتصرف بما فى آفاته من الكونيات السادية إلى حيث يحملها من خدم شؤونه الحيوية على عكس من الجسد إذا تسنم ضوء القلب واقتمد سرير الساطة فإنه يهبط بالإنسان إلى عالمه فى الدرجات السفلية وبرزخ المعجم من الحيوانات إلى حيث تترفع الطبيعة أن يمسا بكفه تصرف أو تمكنه من وطر ، فأى الطريقتين خير ؟

أراد الإسلام بهذا الإنسان خيراً أحتم عليه فى سائر أحواله أن يجيب مطالب عالمه الروحى ويتقاعس عن مشتهيات عالمه المادى ما استطاع ودعاه أن يقف بين يدى ربه سبحانه وتعالى خمس وقفات فى اليوم يناجيه بهيئة الذل وشمار الخضوع بحيث ينبذ ما سواه فى المرأ ليتأهل لقبول الفيض الإلهى الذى هو لروحه غذاؤه تتقوت به وتعتمد عليه فى مناوراتها مع جسم والمادة وتلك هى الصلاة التى تنهى عما تنهى وتقرب إلى الله زانئ تلك التى كفكفت جبروت أولئك القوم الجاهلية فى ربح من الزمن وهى التى كان مؤمن القلب فى القرون الغابرة يتشيب فيها عن

مشاعره بحيث لم يكن يشعر بالفواجع الخطيرة والمؤامرات الجسدية ولو كان في هذه نشر عظمه أو عرق لحمه وهامو تاريخ حياة القوم كانوا يعملون أو الصلاة ماهية دعواتها الخشوع . كانوا يعملون أن ما فيها من الاعمال انما هو ركن ثانوي يقصد به تمثيل الخضوع القلبي على الجوارح ليشارك السر والملائية في التذلل والسكينة فطفقوا يصلون متجردين عن المشاغل الفكرية وهو السبب فيما يبلغنا عنهم من الفيبة عن مشاهد الكون في خلال الصلاة أما نحن فانا ذهبنا إلى ان الصلاة انما هي تلك الاعمال الظاهرية لا تدخل فيها الخشوع ولا يعنى فيها خضوع وأقبلنا نجتزئ بتلك الوقفات الجمادية والاختلاجات اللسانية وهي لا تصدقنا عن فحش نأتيه ولا تنهانا عن منكر نفعله فهل يخالف قول القرآن أم نحن لم نكن مصلين؟ زعم أننا لم نحاطب خطاب التكليف بتلك الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر حيث فهمنا أنها هي الكاملة ويكأن القوم لا يعاقون اهل أمر الله إذ أمر باقامة الصلاة ان تكون ناقصة أم دلت الاقامة في قوله تعالى (اقيموا الصلاة) على ذلك المعنى الناقص؟

استغفر الله . قال صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . اللهم ما هو لاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً

﴿ الملائكة والنواميس الطبيعية ﴾

سأل سائل : اذا كانت الملائكة هي عبارة عن القوى المعنوية . والنواميس التي بها نظام العوالم الحية . فما معنى « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » وأمثاله ؟ والجواب : ان الذي تقدم في التفسير هو ان الملائكة عالم مستقل مستر عنا وانما كان ذكر القوى والنواميس الطبيعية جذبا لمنكري الملائكة الى التصديق لأن بعض ماورد يوافق ما يعتقدون فكيف يكفرون لاختلاف الالفاظ لأن الكلام كان ارجاعا لنصوص الدين الى أقوالهم

﴿ القسم المموي ﴾

نموذج في كتاب دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني وهو يطبع الآن

فصل

(في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه . ودم الاشتغال بعلمه وتقبه)

لا يخلو من كان هذا رأيه من أمور (أحدها) أن يكون رفضه له
وذهمه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل أو سُخْفٍ وهجاء وسب وكذب
وباطل على الجملة (والثاني) أن يذمه لأنه موزون مقفى ويرى هذا بمجرد
عمياً يقتضى الزهد فيه والتنزه عنه (والثالث) أن يتعلق بأحوال الشراء
وأنه غير جميلة في الأكثر ويقول قد دُمُوا في التنزيل ، وأى كان من
هذه رأياً له فهو في ذلك على خطأ ظاهر ، وغلط فاحش ، وعلى خلاف
ما يوجب القياس والنظر ، بالضد مما جاء به الأثر ، وصح به الخبر .

أما من زعم أن ذمه له من أجل ما يجده فيه من هزل وسُخْفٍ وكذب
وباطل فينبغي أن يذم الكلام كله . وأن يفضل الجرس على النطق والمعنى
على البيان . فتنور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه والذي
زعم أنه ذم الشعر بسببه وطأه بنسبته إليه أكثر لأن الشراء في كل
عصر وزمان ممدودون . والعامّة ومن لا يقول الشعر من الخاصة عديد
الرمل . ونحن نعلم أن لو كان منشور الكلام يُجمَع كما يُجمَع المنظوم . ثم
تمدّ عامدٌ فجمع ما قيل من جنس الهزل والسُخْفِ ثراً في عصر واحد
لأرنبى على جميع ما قاله الشراء نظماً في الأزمان الكثيرة وانقره حتى
لا يظهر فيه ، ثم إنك لو لم ترو من هذا الضرب شيئاً قط ولم تحفظ
إلا الجِدَّ المحض وإلا ما لا يعاب عليك في روايته وفي المحاضرة به وفي

نسخه وتدوينه لكان في ذلك غنى ومنذوحة ولو وجدت طلبتاك وولت
مرادك وحصل لك ما نحن ندعوك اليه من علم الفصاحة فاختر لنفسك
ودع ما تذكره الي ما تحب (هذا) وراوى الشعر حاك وليس على الحاكي
عيب ، ولا عليه تبعة ، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً ، أو يسوء
مسلماً ، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار فانظر إلى الفرض الذي له روى
الشعر ومن أجله أريد وله دون تعلم أنك قد زغت عن المنهج وانك
مسيء في هذه المداوة وهي المصيبة منك على الشعر . وقد استشهد
العلماء لغريب القرآن وإعراجه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل
التبحيح ثم لم يعبهم ذلك إذا كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم
يرووا الشعر من أجله . قالوا وكان الحسن البصرى رحمه الله يتمثل في
مواظفه وكان من أوجعها عنده :

﴿ اليوم عندك دلها وحدثها وغداً لفيرك كفها والممصم ﴾

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذكره المرزبانى فى
كتابه باسناد عن عبد الملك بن عمير أنه قال أوتى عمر رضوان الله عليه
بجال من اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبى طالب ومحمد بن أبى بكر
الصديق ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن حاطب فدخل عليه زيد
ابن ثابت رضى الله عنه فقال يأمر المؤمنين هؤلاء الحمدون بالبواب
يطلبون الكسوة فقال ائذن لهم يا غلام فدما بجال فأخذ زيد أجودها
وقال هذه لمحمد بن حاطب وكانت أمه عنده وهو من بنى لؤى فقال عمر
رضى الله عنه أيتها أيتها وتمثل بشعر مُمارة بن الوليد :

اسرك لما صرع القوم نشوة خروجي منها صالما غير فارم^(١)
 بريثا كاني قبل لم أك منهم وليس الخداع مرتضى في التنادم
 رُدّها ثم قال ائتني بثوب فألقه على هذه الحلال وقال أدخل يديك
 فخذ حلة وأنت لا تراها فاعطهم : قال عبد الملك فلم أر قسمة أعدل منها
 وعُمارة هذا هو عمارة بن الوليد بن المغيرة خطيب امرأة من قومه
 فقالت لا أتزوجك أو تترك الشراب فأبى ثم اشتد وجده بها تخاف لها
 أن لا يشرب ثم مر بجمار عنده شرب يشربون^(٢) فدعوه فدخل عليهم
 وقد أنفدوا ما عندهم فنحر لهم ناقته وسقاهم يرديه ومكثوا أياما ثم خرج
 فأبى أهله فلما رأته امرأته قالت ألم تحلف أن لا تشرب فقال :

ولسنا شرب أم عمر وإذا نشوا ثياب الندامى عندهم كأننا ثم
 ولكننا يا أم عمرو نديننا بمنزلة الريان ليس بعائم^(٣)
 أسرك - البيتين « فإذن : رب هزأ صار أداة في جسد ، وكلام جرى
 في باطل ثم استعين به على حق ؛ كما أنه رب شيء خيس ، توصل به
 إلى شريف ، بأن ضرب مثلا فيه ، وجعل مثالا له ؛ كما قال أبو تمام :

والله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وعلى العكس فرب كلمة حق أريد بها باطل فاستحق عليها الذم
 كما عرفت من خبر الخارجي مع علي رضوان الله عليه ، ورب قول حسن

(١) صرع بالشديد كصرع بالضعيف . والشعر في منها للنشوة السكر . ومن شأن
 المنتشى أن يتلف ماله فيخرج غارماً . وأن الامارة نشوة أدعى إلى الغرم ، ومسكره أبعث
 على الظلم ، ومثل عمر من يخرج منها وهو سالم ، لا ظالم ولا غارم ، (٢) الشرب بالفتح
 جماعة الشاربين (٣) العائم ذو العيمة « كخيمة » وهي شهوة اللابن مع فقد

لم يحسن من قائله حين تسبب به إلى قبيح كالذي حكى الجاحظ قال: رجع طاوس يوماً عن مجلس محمد بن يوسف وهو يومئذ والى اليمن فقال: ما ظننت أن قول سبحان الله يكون معصية لله حتى كان اليوم سمعت رجلاً أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاماً فقال رجل من أهل المجلس سبحان الله كالمستمطم لذلك الكلام ليفضب ابن يوسف، فبهذا ونحوه واعتبر واجمله حكما بينك وبين الشعر.

(وبعد) فكيف وضع من الشعر عندك وكسبه الملمت منك أنك وجدت فيه الباطل والكذب وبمض ما لا يحسن ولم يرفعه في نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب وأن كان مجنى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فرق الآداب، والذي قيّد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين، مخلدة في الباقين، وعمول الأولين، مردودة في الآخرين، وترى لكل من رام الأدب، وابتغى الشرف، وطالب محاسن القول والفعل، منارا مرفوعا، وعلما منصوبا، وهاديا مرشدا، ومعلما مسددا، وتجد فيه للنأي عن طاب المآثر، والزاهد في اكتساب المحامد، داعيا محرصا، وباعثا، ومخضضا، ومذكرا أو معروفا وواعظا وثقفا، فلو كنت ممن ينصف كان في بعض ذلك ما يغير هذا الرأي منك، وما يحدوك على رواية الشعر وطالبه، ويعلمك أن تعيبه أو تعيب به، ولكنك أبيت إلا ظنا سبق إليك، والابادى، رأى عنك، فأقفلت عليك قلبك،

وسددت عما سواه سمعك ، فمى الناصح بك ، (١) وعسر على الصديق الخليط تنبيهك ، نعم وكيف رويت «لأن يمتلى جوف أحدكم ويخاف يريه»^(٢) خير له من أن يمتلى شمرأ ، ولهمجت به وتركت قوله صلى الله عليه وسلم : «ان من الشمر لحكمة وان من البيان لسحرا»^(٣) وكيف نسبت أمره صلى الله عليه وسلم بقول الشمر ووعده عليه الجنة . وقوله لحسان : قل وروح القدس معك ، وسماعه له ، واستنشاده اياه ، وعلقه صلى الله عليه وسلم به ، واستحسانه له ، وارتياحه عند سماعه ؟

(أمّا) أمره به فمن المعلوم ضرورة وكذلك سماعه اياه فقد كان حسان وعبدالله ابن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصنف اليهم ويأمرهم بالرد على المشركين^(٤) فيقولون في ذلك ويمرضون عليه . وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك كالذى روى من انه صلى الله عليه وسلم قال لكعب

(١) عن عجز أصله عبي فادغم (٢) حديث رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن وغيرهم عن أبي هريرة وعن غيره والرواية المشهورة فيه « حتى يره » أى يفسده وفي رواية بخذف حتى يريه وفي أخرى حذف حتى وقرأها بعضهم حينئذ يريه بالفتح وبعضهم بالضم ولم أر من رواه بالقاء « فيريه » كما في نسخة المصنف . وفي رواية ابن عدى عن جابر « لأن يمتلى جوف الرجل قيحاً أو دماً خير له من أن يمتلى شعراً مما هجيت به » (٣) الحديث مشهور رواه أصحاب الصحاح وغيرهم ورواية المصنف ملفقة من روايتين فقد وردت كل جملة من طريق . وأما الجملتان معاً فقد جاءتا في حديث ابن عباس عند أحمد وابن ماجه هكذا (إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً) وعند ابن عساكر من حديث طي باللام وله تسمية وهي « وإن من العلم لجهلا وإن من القول عيالا » (٤) روى الخطيب وابن عساكر عن حسان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : اهج المشركين وجبرائيل معك إذا حارب أصحابي بالسلاح فخارب أنت باللسان . وفي حديث جابر عند ابن جرير أنه قال يوم الأحزاب (من يحمي أعراض المؤمنين) قال

«مانسى ربك وما كان ربك نسيا شعر أقاته»^(١) . قال وما هو يا رسول الله ؟

قال : «أنشده يا أبا بكر» فأنشده أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة أن مستطرب ربها وليظلمن مغالب الغلاب^(٢)

(وَأَمَّا) استنشاده إياه فكثير . من ذلك الخبر المعروف في استنشاده

حين استسقى فسقى قول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يُطيف به المهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

الآيات . وعن الشعبي رضى الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال

كعب أنا يا رسول الله فقال (إنك محسن الشعر) فقال حسان بن ثابت أنا يا رسول الله

قال (نعم اهجم أنت فسيعينك روح القدس) وكتب الأستاذ الامام في هامش

النسخة الأصلية بازاء اسم كعب : (لعله كعب بن مالك لأن ابن زهير وإن مدح لكنه

لم يؤمر بالشعر المناضلة عن الاسلام فقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع)

ويؤيد قول الأستاذ مارواه ابن جرير عن ابن سيرين وملخصه أن المهاجرين رغبوا

إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن يأمر عليا بهجاء الرهط الذين هجوه (وهم عمرو

ابن العاص وعبد الله بن الزبيري وأبو صفيان بن الحارث) فقال ليس على هنالك

وعرض بالأخبار فانتدب لذلك حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وفيه أنه

استنشد كعباً وهو راكب ناقته فأنشد الآيات التي أولها :

قضينا من تهامة كل ريث وخير ثم أجمحنا السيوفاً

لحيرها ولو نظقت لقات قواطهن دوساً أو تقيفاً

قال : فأنشد الكلمة كلها فقال النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده

لهي أشد عليهم من رشق النبل) قال ابن سيرين : فبثت أن دوساً إنما أسلمت بكلمة

كعب هذه . (١) قال الأستاذ الامام (هذا هو كعب بن مالك) (٢) كتب في هامش

الأصل : سخينة لقب تبر به قريش لأنها كانت تأكل السخينة وهي طعام من دقيق

الشعير واللحم وتسخن وذلك في أيام المجاعات . والحديث رواه ابن منده وابن

عساكر عن جابر

لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القتلى يوم بدر مصرّ عين فقال
صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه «لو ان أبا طالب حىّ لعلم ان
أسيافنا قد أخذت بالأنامل» قال وذلك لقول أبي طالب^(١)

كذبتهم وبيت الله أن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل
وينهض قوم في الدروع اليهم نهوض الروايا في طريق حلاهل

(١) البيت الذى فيه لفظ الأنامل في قصيدة أبى طالب هو قوله

وقد حالقوا قوهآ علينا أظنة يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

والبيت الذى فيه كذبتهم هو قوله :

كذبتهم وبيت الله ترك مكة ونظهن إلا أمركم في بلابل

وقوله : كذبتهم وبيت الله نبرى محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل

والبيت الذى فيه التلتبسن الخ هو قوله :

وأنا لعمر الله إن جد ما أدوى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل

والذى فيه ينهض الخ هو قوله

وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وهذا تعلم ما فى بيتى الشيخ . اه من هامش الأستاذ الامام

(تفسيره) قوله أظنة جمع ظنين وهو التهم . والظنة بالكسر التهمة وجمعها ظنين .
وجمع فعيل على أفعلة غير قياسى ولكنه ورد ومنه قوله تعالى « أشححة عليكم » . وقول ترك
مكة أى لا تركها . ومنه قوله نبرى محمداً أى لا نبزاه ولفظ (محمداً) منصوب بنزع
الخافض . يقال أبزى فلان بفلان إذا غلبه وقهره أى لا تغلب بمحمد ولا تقهر عليه
والحال أننا لم نطاعن دونه بالرمح وتناضل عنه بالسهم فالجملۃ اللفظية بلما حال من نائب
الفاعل . وقوله (لتلتبسن أسيافنا بالأنامل) أى لتختلطن بالاشراف بما تفتك بهم فى الحرب ،
والروايا جمع رواية وهو ما يستقى عليه من غير وغيره ، والصلاصل القرب فيها بقايا الماء
واحدها صلصلة بضم الصادين وهى بقية الماء فى الأداة والقربة - يريد أن قومه ينهضون
مثقليين بالحديد تسمع له قعقة كصلصلة الماء فى المزادات

ومن المحفوظ في ذلك حديث ابن مسلمة الانصاري^(١) جمه وابن أبي حدرد الاملى الطريق قال فتذاكرنا الشكر والمعروف قال فقال محمد كنا يوما عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت : « انشدني قصيدة من شعر الجاهلية فان الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايتها » : فأنشده قصيدة للأعشى هجاءها علقمة ثلاثة

علم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجامك هذا » فقال يا رسول الله تنهاى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا حسان أشكر الناس للناس اشكرهم لله تعالى ، وان قيصر سأل أبو سفيان بن حرب عنى فتناول منى . وفي خبر آخر فشعت منى وأنه سأل هذا عنى فأحسن القول » فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك . وروى من وجه آخر ان حسان قال يا رسول الله من نالتك يده وجب علينا شكره . ومن المعروف في ذلك خبر عائشة رضوان الله عليها انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرأ ما يقول « آياتك » فأقول

ارفع ضميفك لا يخرّبك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نمت
يخرّبك أو يثني عليك وأن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

(١) الحديث رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وابن عساكر عن محمد بن مسلمة بلفظ (يا حسان أنشدني من شعر الجاهلية فان الله قد وضع عنك آثامها في شعرها وروايتها) وفيه أنه قال له بعد إنشاد القصيدة (يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة فاني ذكرت عند قيصر وعنده أبو سفيان وعلقمة بن علاثة فأما أبو سفيان فتناول منى وأما علقمة فحسن القول وأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس)